تفسير ابن كثير

قال الطبراني : حدثنا الحسين بن إسحاق التستري حدثنا يحيى الحماني حدثنا يعقوب القمي عن جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : أتت قريش اليهود فقالوا : بم جاءكم موسى ؟ قالوا : عصاه ويده بيضاء للناظرين وأتوا النصارى فقالوا : كيف كان عيسى ؟ قالوا : كان يبرىء الأكمه والأبرص ويحيي الموتى فأتوا النبي صلى ا عليه وسلّم فقالوا : ادع ا أن يجعل لنا الصفا ذهبا فدعا ربه فنزلت هذه الاية { إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب } فليتفكروا فيها وهذا مشكل فإن هذه الاية مدنية وسؤالهم أن يكون الصفا ذهبا كان بمكة وا أعلم ومعنى الاية أن ا تعالى يقول : { إن في خلق السموات والأرض } أي هذه في ارتفاعها واتساعها وهذه في انخفاضها و كثافتها واتضاعها وما فيهما من الايات المشاهدة العظيمة من كواكب سيارات وثوابت وبحار وجبال وقفار وأشجار ونبات وزروع وثمار وحيوان ومعادن ومنافع مختلفة الألوان والروائح والطعوم والخواص { واختلاف الليل والنهار } أي تعاقبهما وتقارضهما الطول والقصر فتارة يطول هذا ويقصر هذا ثم يعتدلان ثم يأخذ هذا من هذا فيطول الذي كان قصيرا ويقصر الذي كان طويلا وكل ذلك تقدير العزيز العليم ولهذا قال تعالى { لآيات لأولي الألباب } أي العقول التامة الذكية التي تدرك الأشياء بحقائقها على جلياتها وليسوا كالصم البكم الذين لا يعقلون الذين قال ا فيهم { وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون * وما يؤمن أكثرهم با إلا وهم مشركون } ثم وصف تعالى أولي الألباب فقال : { الذين يذكرون ا قياما وقعودا وعلى جنوبهم } كما ثبت في صحيح البخاري عن عمران بن حصين : [أن رسول ا صلى ا عليه وسلّم قال صل قائما فإن لم تستطع فقاعدا فإن لم تستطع فعلى جنبك] أي لا يقطعون ذكره في جميع أحوالهم بسرائرهم وضمائرهم وألسنتهم { ويتفكرون في خلق السموات والأرض } أي يفهمون ما فيهما من الحكم الدالة على عظمة الخالق وقدرته وعلمه وحكمته واختياره ورحمته وقال الشيخ أبو سليمان الداراني : إني لأخرج من منزلي فما يقع بصري على شيء إلا رأيت علي فيه نعمة ولي فيه عبرة رواه ابن أبي الدنيا في كتاب التوكل والاعتبار وعن الحسن البصري أنه قال : تفكر ساعة خير من قيام ليلة وقال الفضيل قال الحسن : الفكرة مرآة تريك حسناتك وسيئاتك وقال سفيان بن عيينة : الفكرة نور يدخل قلبك وربما تمثل بهذا البيت : .

(إذا المرء كانت له فكرة ... ففي كل شيء له عبرة) .

وعن عيسى عليه السلام أنه قال : طوبى لمن كان قيله تذكرا وصمته تفكرا ونظره عبرا قال

لقمان الحكيم : إن طول الوحدة ألهم للفكرة وطول الفكرة دليل على طرق باب الجنة وقال وهب بن منبه ما طالت فكرة امرىء إلا فهم ولا فهم امرؤ قط إلا علم ولا علم امرؤ قط إلا عمل وقال عمر بن عبد العزيز : الكلام بذكر ا D حسن والفكرة في نعم ا أفضل العبادة وقال مغيث الأسود : زوروا القبور كل يوم تفكركم وشاهدوا الموقف بقلوبكم وانظروا إلى المنصرف بالفريقين إلى الجنة أو النار وأشعروا قلوبكم وأبدانكم ذكر النار ومقامعها وأطباقها وكان يبكي عند ذلك حتى يرفع صريعا من بين أصحابه قد ذهب عقله وقال عبد ا بن المبارك : مر رجل براهب عند مقبرة ومزبلة فناداه فقال : يا راهب إن عندك كنزين من كنوز الدنيا لك فيهما معتبر : كنز الرجال وكنز الأموال وعن ابن عمر : أنه كان إذا أراد أن يتعاهد قلبه يأتي الخربة فيقف على بابها فينادي بصوت حزين فيقول : أين أهلك ؟ ثم يرجع إلى نفسه فيقول : { كل شيء هالك إلا وجهه } وعن ابن عباس أنه قال : ركعتان مقتصدتان في تفكر خير من قيام ليلة والقلب ساه وقال الحسن البصري : يا ابن آدم كل في ثلث بطنك واشرب في ثلثه ودع ثلثه الاخر تتنفس للفكرة وقال بعض الحكماء : من نظر إلى الدنيا بغير العبرة انطمس من بصر قلبه بقدر تلك الغفلة وقال بشر بن الحارث الحافي : لو تفكر الناس في عظمة ا تعالى لما عصوه وقال الحسن عن عامر بن عبد قيس قال : سمعت غير واحد ولا اثنين ولا ثلاثة من أصحاب النبي صلى ا عليه وسلّم يقولون : إن ضياء الإيمان أو نور الإيمان التفكر وعن عيسى عليه السلام أنه قال : يا ابن آدم الضعيف اتق ا حيث ما كنت وكن في الدنيا ضيفا واتخذ المساجد بيتا وعلم عينيك البكاء وجسدك الصبر وقلبك الفكر ولا تهتم برزق غد وعن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز Bه أنه بكى يوما بين أصحابه فسئل عن ذلك فقال : فكرت في الدنيا ولذاتها وشهواتها فاعتبرت منها بها ما تكاد شهواتها تنقضي حتى تكدرها مرارتها ولئن لم يكن فيها عبرة لمن اعتبر إن فيها مواعظ لمن ادكر وقال ابن أبي الدنيا : أنشدني الحسين بن عبد الرحمن : .

(نزهة المؤمن الفكر ... لذة المؤمن العبر) .

(نحمد ا وحده ... نحن كل على خطر) .

(رب لاه وعمره ... قد تقضى وما شعر) .

(رب عيش قد كان فو ... ق المنى مونق الزهر) .

(في خرير من العيو ... ن وظل من الشجر) .

(وسرور من النبا ... ت وطيب من الثمر) .

(غيرته وأهله ... سرعة الدهر بالغير) .

(نحمد ا وحده ... إن في ذا لمعتبر) .

(إن في ذا لعبرة ... للبيب إن اعتبر) .

وقد ذم ا تعالى من لا يعتبر بمخلوقاته الدالة على ذاته وصفاته وشرعه وقدره وآياته فقال { وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون * وما يؤمن أكثرهم با إلا وهم مشركون } ومدح عباده المؤمنين { الذين يذكرون ا قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض } قائلين { ربنا ما خلقت هذا باطلا } أي ما خلقت هذا الخلق عبثا بل بالحق لتجزي الذين أساؤوا بما عملوا وتجزي الذين أحسنوا بالحسنى ثم نزهوه عن العبث وخلق الباطل فقالوا { سبحانك } أي عن أن تخلق شيئا باطلا { فقنا عذاب النار } أي يا من خلق الخلق بالحق والعدل يا من هو منزه عن النقائص والعيب والعبث قنا من عذاب النار بحولك وقوتك وقيضنا لأعمال ترضى بها عنا ووفقنا لعمل صالح تهدينا به إلى جنات النعيم وتجيرنا به من عذابك الأليم ثم قالوا { ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته } أي أهنته وأظهرت خزيه لأهل الجمع { وما للظالمين من أنصار } أي يوم القيامة لا مجير لهم منك ولا محيد لهم عما أردت بهم { ربنا إننا سمعنا مناديا ينادي للإيمان } أي داعيا يدعو إلى الإيمان وهو الرسول صلى ا عليه وسلّم { أن آمنوا بربكم فآمنا } أي يقول آمنوا بربكم فآمنا أي فاستجبنا له واتبعناه أي بإيماننا واتباعنا نبيك { ربنا فاغفر لنا ذنوبنا } أي استرها { وكفر عنا سيئاتنا } فيما بيننا وبينك { وتوفنا مع الأبرار } أي ألحقنا بالصالحين { ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك } قيل : معناه على الإيمان برسلك وقيل : معناه على ألسنة رسلك وهذا أظهر ـ وقد قال الإمام أحمد : حدثنا أبو اليمان حدثنا إسماعيل بن عياش عن عمرو بن محمد عن أبي عقال عن أنس بن مالك قال : [قال رسول ا صلى ا عليه وسلّم عسقلان أحد العروسين يبعث ا منها يوم القيامة سبعين ألفا لا حساب عليهم ويبعث منها خمسين ألفا شهداء وفودا إلى ا وبها صفوف الشهداء رؤوسهم مقطعة في أيديهم تثج أوداجهم دما يقولون { ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد } فيقول ا : صدق عبيدي اغسلوهم بنهر البيضة فيخرجون منه نقاء بيضا فيسرحون في الجنة حيث شاؤوا] وهذا الحديث يعد من غرائب المسند ومنهم من يجعله موضوعا وا أعلم { ولا تخزنا يوم القيامة } أي على رؤوس الخلائق { إنك لا تخلف الميعاد } أي لا بد من الميعاد الذي أخبرت عنه رسلك وهو القيام يوم القيامة بين يديك وقد قال الحافظ أبو يعلى : حدثنا الحارث بن سريج حدثنا المعتبر حدثنا الفضل بن عيسى حدثنا محمد بن المنكدر أن جابر بن عبد ا حدثه أن رسول ا صلى ا عليه وسلّم قال [العار والتخزية تبلغ من ابن آدم في القيامة في المقام بين يدي ا D ما يتمنى العبد أن يؤمر به إلى النار] حديث غريب وقد ثبت أن رسول ا صلى ا عليه وسلّم كان يقرأ هذه الايات العشر من آخر آل عمران إذا قام من الليل لتهجده فقال البخاري C : حدثنا سعيد بن أبي مريم حدثنا محمد بن جعفر أخبرني شريك بن عبد ا بن أبي نمر عن كريب عن ابن عباس Bهما قال : [بت عند خالتي

ميمونة فتحدث رسول ا صلى ا عليه وسلّم مع أهله ساعة ثم رقد فلما كان ثلث الليل الاخر قعد فنظر إلى السماء فقال { إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب } الايات ثم قام فتوضأ واستن فصلى إحدى عشرة ركعة ثم أذن بلال فصلى ركعتين ثم خرج فصلى بالناس الصبح] وهكذا رواه مسلم عن أبي بكر بن إسحاق الصنعاني عن ابن أبي مريم به ثم رواه البخاري من طرق عن مالك عن مخرمة بن سليمان عن كريب أن ابن عباس أخبره أنه بات عند ميمونة زوج النبي صلى ا عليه وسلّم وهي خالته قال : [فاضطجعت في عرض الوسادة واضطجع رسول ا صلى ا عليه وسلّم وأهله في طولها فنام رسول ا صلى ا عليه وسلّم حتى إذا انتصف الليل أو قبله أو بعده بقليل استيقظ رسول ا صلى ا عليه وسلّم من منامه فجعل يمسح النوم عن وجهه بيده ثم قرأ العشر الايات الخواتيم من سورة آل عمران ثم قام إلى شن معلقة فتوضأ منها فأحسن وضوءه ثم قام يصلي قال ابن عباس Bهما : فقمت فصنعت مثل ما صنع ثم ذهبت فقمت إلى جنبه فوضع رسول ا صلى ا عليه وسلّم يده اليمنى على رأسي وأخذ بأذني اليمنى يفتلها فصلى ركعتين ثم ركعتين ثم ركعتين ثم ركعتين ثم ركعتين ثم ركعتين ثم أوتر ثم اضطجع حتى جاءه المؤذن فقام فصلى ركعتين خفيفتين ثم خرج فصلى الصبح] وهكذا أخرجه بقية الجماعة من طرق عن مالك به ورواه مسلم أيضا و أبو داود من وجوه أخر عن مخرمة بن سليمان به .

(طريق أخرى) لهذا الحديث عن ابن عباس Bهما قال أبو بكر بن مردويه : حدثنا محمد بن أحمد بن محمد بن علي حدثنا أبو يحيى بن أبي مسرة أنبأنا خلاد بن يحيى أنبأنا يونس بن أبي إسحاق عن المنهال بن عمرو عن علي بن عبد ا بن عباس عن عبد ا بن عباس قال : أمرني العباس أن أبيت بآل رسول ا صلى ا عليه وسلّم وأحفظ صلاته قال : [فصلى رسول ا A بالناس صلاة العشاء الاخرة حتى إذا لم يبق في المسجد أحد غيره قام فمر بي فقال : من هذا ؟ عبد ا ؟ قلت : نعم قال : فمه قلت أمرني العباس أن أبيت بكم الليلة قال : فالحق الحق فلما أن دخل قال : افرشن عبد ا ؟ فأتى بوسادة من مسوح قال : فنام رسول ا A عليها حتى سمعت غطيطه ثم استوى على فراشه قاعدا قال : فرفع رأسه إلى السماء فقال سبحان الملك القدوس ثلاث مرات ثم تلا هذه الايات من آخر سورة آل عمران حتى ختمها] وقد روى مسلم وأبو داود والنسائي من حديث علي بن عبدا بن عباس عن أبيه حديثا في ذلك أيضا .

(طريق أخرى) رواها ابن مردويه من حديث عاصم بن بهدلة عن بعض أصحابه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس [أن رسول ا A خرج ذات ليلة بعدما مضى ليل فنظر إلى السماء وتلا هذه الاية { إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب } إلى آخر السورة ثم قال اللهم اجعل في قلبي نورا وفي سمعي نورا وفي بصري نورا وعن يميني نورا وعن شمالي نورا ومن بين يدي نورا ومن خلفي نورا ومن فوقي نورا ومن تحتي نورا وأعظم لي نورا يوم

القيامة] وهذا الدعاء ثابت في بعض طرق الصحيح من رواية كريب عن ابن عباس Bه ثم روى ابن مردويه وابن أبي حاتم من حديث جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : أتت قريش اليهود فقالوا : بم جاءكم موسى من الايات ؟ قالوا : عصاه ويده البيضاء للناظرين وأتوا النصارى فقالوا : كيف كان عيسى فيكم ؟ قالوا : كان يبرىء الأكمه والأبرص ويحيي الموتى فأتوا النبي A فقالوا : ادع لنا ربك يجعل لنا الصفا ذهبا فدعا ربه D فنزلت { إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب } قال : فليتفكروا فيها لفظ ابن مردويه وقد تقدم هذا الحديث من رواية الطبراني في أول الاية وهذا يقتضي أن تكون هذه الايات مكية والمشهور أنها مدنية ودليله الحديث الاخر قال ابن مردويه : حدثنا إسماعيل بن علي بن إسماعيل حدثنا أحمد بن علي الحراني حدثنا شجاع بن أشرس حدثنا حشرج بن نباتة الواسطي أبو مكرم عن الكلبي وهو أبو جناب عن عطاء قال : انطلقت أنا و ابن عمر وعبيد بن عمير إلى عائشة Bها فدخلنا عليها وبيننا وبينها حجاب فقالت : يا عبيد ما يمنعك من زيارتنا ؟ قال : قول الشاعر : زر غبا تزدد حبا فقال ابن عمر : [ذرينا أخبرينا بأعجب شيء رأيته من رسول ا A فبكت وقالت : كل أمره كان عجبا أتاني في ليلتي حتى مس جلده جلدي ثم قال : ذريني أتعبد لربي D قالت : فقلت وا إني لأحب قربك وإني أحب أن تعبد لربك فقام إلى القربة فتوضأ ولم يكثر صب الماء ثم قام يصلي فبكى حتى بل لحيته ثم سجد فبكى حتى بل الأرض ثم اضطجع على جنبه فبكى حتى إذا أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح قالت : فقال : يارسول ا ما يبكيك وقد غفر ا لك ذنبك ما تقدم وما تأخر ؟ فقال : ويحك يا بلال وما يمنعني أن أبكي وقد أنزل علي في هذه الليلة { إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب } ثم قال ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها] وقد رواه عبد بن حميد في تفسيره عن جعفر بن عون عن أبي جناب الكلبي عن عطاء قال : دخلت أنا وعبد ا بن عمر وعبيد بن عمير على أم المؤمنين عائشة Bها وهي في خدرها فسلمنا عليها فقالت : من هؤلاء ؟ قال : فقلنا : هذا عبد ا بن عمر وعبيد بن عمير قالت : يا عبيد بن عمير ما يمنعك من زيارتنا قال : ما قال الأول : زر غبا تزدد حبا قالت إنا لنحب زيارتك وغشيانك قال عبد ا بن عمر : دعينا من بطالتكما هذه [أخبرينا بأعجب ما رأيت من رسول ا A قال : فبكت ثم قالت : كل أمره كان عجبا أتاني في ليلتي حتى دخل معي في فراشي حتى لصق جلده بجلدي ثم قال : يا عائشة ائذني لي أتعبد لربي قالت : إني لأحب قربك وأحب هواك قالت : فقام إلى قربة في البيت فما أكثر صب الماء ثم قام فقرأ القرآن ثم بكى حتى رأيت أن دموعه قد بلغت حقويه قالت : ثم جلس فحمد ا وأثنى عليه ثم بكى حتى رأيت دموعه بلغت حجره قالت : ثم اتكأ على جنبه الأيمن ووضع يده تحت خده قالت : ثم بكى حتى رأيت دموعه قد بلغت الأرض فدخل عليه بلال فآذنه بصلاة الفجر ثم قال : الصلاة يا

رسول ا فلما رآه بلال يبكي قال : يا رسول ا تبكي وقد غفر ا لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال يا بلال أفلا أكون عبدا شكورا ؟ ومالي لا أبكي وقد نزل علي الليلة { إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب } إلى قوله { سبحانك فقنا عذاب النار } ـ ثم ـ قال ويل لمن قرأ هذه الايات ثم لم يتفكر فيها] وهكذا رواه أبي حاتم ابن حبان في صحيحه عن عمران بن موسى عن عثمان بن أبي شيبة عن يحيى بن زكريا عن إبراهيم بن سويد النخعي عن عبد الملك بن أبي سليمان عن عطاء قال : دخلت أنا وعبيد بن عمير على عائشة فذكر نحوه وهكذا رواه عبد ا بن محمد بن أبي الدنيا في كتاب التفكر والاعتبار عن شجاع بن أشرس به ثم قال : حدثني الحسن بن عبد العزيز : سمعت سنيدا يذكر عن سفيان هو الثوري رفعه قال [من قرأ آخر آل عمران فلم يتفكر فيها ويله] يعد بأصابعه عشرا ـ قال الحسن بن عبد العزيز : فأخبرني عبيد بن السائب قال : قيل للأوزاعي : ما غاية التفكر فيهن ؟ قال : يقرؤهن وهو يعقلهن قال ابن أبي الدنيا : وحدثني قاسم بن هاشم حدثنا علي بن عياش حدثنا عبد الرحمن بن سليمان قال : سألت الأوزاعي عن أدنى ما يتعلق به المتعلق من الفكر فيهن وما ينجيه من هذا الويل ؟ فأطرق هنية ثم قال : يقرؤهن وهو يعقلهن .

(حديث آخر) فيه غرابة قال أبو بكر بن مردويه : حدثنا عبد الرحمن بن بشير بن نمير حدثنا إسحاق بن إبراهيم البستي (ح) قال : وحدثنا إسحاق بن إبراهيم بن زيد حدثنا أحمد بن عمرو قال : أنبأنا هشام بن عمار أنبأنا سليمان بن موسى الزهري أنبأنا مظاهر بن أسلم المخزومي أنبأنا سعيد بن أبي سعيد المقبري عن أبي هريرة قال : [كان رسول ا A يقرأ عشر آيات من آخر سورة آل عمران كل ليلة] مظاهر بن أسلم ضعيف